مجلة جامعة الزيتونة الدولية للنشر العلمي
Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing
Issue N.34-Vol.2 / ISSN:2958-8537

العدد الرابع والثلاثون (34)، المجلد الثاني
تاريخ 31 – 5 – 2025
(ص 91 لـ ص109)

الجانب الاقتصادي في الدولة الأيوبية

The Economic Aspect of the Ayyubid State

أحمد ماردنلي
Ahmad mardenlı

الجمهورية التركية –جامعة ماردين –قسم التاريخ – ماجستير

الملخص:

هدف هذا البحث إلى دراسة الجانب الاقتصادي في الدولة الأيوبية، مع التركيز على دور صلاح الدين الأيوبي في بناء اقتصاد قوي ساهم في تحقيق الانتصارات العسكرية ضد الحملات الصليبية. اعتمد البحث على المنهج التاريخي الوصفي لتحليل الأنشطة الاقتصادية مثل التجارة الداخلية والخارجية، والزراعة، والصناعة، والإدارة المالية. توصلت الدراسة إلى أن الاقتصاد الأيوبي شهد ازدهارًا كبيرًا بفضل تنظيم الطرق التجارية، وتنشيط الأسواق المتخصصة، ونهضة زراعية وصناعية، وإدارة مالية فعّالة تعتمد على موارد متنوعة مثل الزكاة والخراج. كما أكد البحث أن صلاح الدين لم يكن قائدًا عسكريًا فحسب، بل قائدًا إداريًا استثمر في البنية التحتية والتعليم والصحة، مما ساهم في بناء دولة قوية من الداخل مكّنتها من مواجهة التحديات الخارجية.

الكلمات المفتاحية: الدولة الأيوبية –الاقتصاد الإسلامي =صلاح الدين الأيوبي–التجارة الداخلية والخارجية–الزراعة والصناعة الأيوبية

Abstract:

This research examines the economic aspect of the Ayyubid state, focusing on the role of Saladin (Salah ad-Din) in establishing a robust economy that contributed to military victories against the Crusades. Using a historical-descriptive methodology, the study analyzes economic activities such as domestic and foreign trade, agriculture, industry, and financial management. The findings reveal that the Ayyubid economy flourished through organized trade routes, specialized markets, agricultural and industrial advancements, and efficient financial systems relying on diverse resources like zakat (Islamic tax) and kharaj (land tax). The study emphasizes that Saladin was not merely a military leader but an administrative visionary who invested in infrastructure, education, and healthcare, thereby building a resilient state capable of overcoming external threats.

Keywords: **Ayyubid State- Islamic Economy- Saladin (Salah ad-Din) - Domestic and Foreign Trade -Agriculture and Industry in Medieval Islam**.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أفضل ما نبتدئ به بحثنا هذا، والصلاة والسلام على سيد البشر وسيد المرسلين،سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى أهله وأصحابه أجمعين أما بعد

لعل النصر العظيم في معركة حطين، أول ما يبادر أذهاننا إذا أردنا الحديث عن الحقبة الأيوبية، أو الدولة الأيوبية زمن صلاح الدين الأيوبي، وذلك لأهمية هذه المعركة في كافة النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولهذا السبب نجد أن أغلب الدراسات التاريخية التي تناولت الحقبة الأيوبية ركزت على الجانب السياسي والعسكري وقليل منها ما تحدث عن الجوانب الأخرى كالجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي ولأن دراسة الحالة الاجتماعية أو الحالة الاقتصادية و وضع الأقليات في بيئة أو مجتمع تعكس بصورة واضحة مدى نهضة هذه البيئة وهذا المجتمع رأيت القيام بدراسة الجانب الاقتصادي في الدولة الأيوبية بالرغم من شحة المصادر التاريخية وتناثرها في بطون الكتب فغالبا ما كان المؤرخون يأتون على ذكرها بشكل عرضي وبالتالي فمن الصعوبة بمكان جمع ما توفر منها وإخراجها بصورة مقبولة.

لعل الكثير من المؤرخين من رأى صلاح الدين الأيوبي كشخصية عسكرية بحتة ولكننا إذا أمعنا النظر في الدولة الأيوبية عسكريا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا نجد هذا الرجل رجل دولة استطاع توحيد الدولة ووضع لها الأسس المتينة على كافة المستويات اقتصاديا واجتماعيا وعلميا وعسكريا وهذا ما ساهم فيما بعد آه في تحقيق الانتصارات والتصدي للعدوان الصليبي ودحره وتحرير بيت المقدس

أهمية الدراسة

تسليط الضوء على حقبة تاريخية مهمة في العالم الإسلامي تخللها حالة من التشتت والانقسام والصراعات الداخلية من جهة والعدوان الخارجي المتمثل بالغزو الصليبي من جهة أخرى ومع ذلك استطاع صلاح الدين الأيوبي متابعة مسيرة سلفه الزنكيين ونجح في بناءه دولة قوية موحدة و قوة عسكرية ضاربة و اقتصاد مستقر

تسليط الضوء على الجانب الاقتصادي للدولة الأيوبية الذي يعتبر في رأيي الجندي المجهول الذي ساهم في الإنجازات العسكرية التي حققها الأيوبيون بقيادة صلاح الدين الأيوبي وكيف كانت تدار الدولة حتى تصل إلى اقتصاد مزهر بالرغم من كل الصراعات التي كانت تحيط بها من الداخل والخارج

مشكلة الدراسة

تكمن مشكلة الدراسة في أن الدولة الأيوبية قامت في مرحلة حساسة في تاريخ أمتنا الإسلامية في ظل الغزوات الصليبية الشرسة التي تعرضت لها بلاد الشام ومصر فهل كان انتصار صلاح الدين الأيوبي وتصديه للغزو الصليبي قائما على حنكته العسكرية كرجل عسكري أم كان قائد دولة استطاع قيادة دفتها على كل الاصعدة لاسيما الجانب الاقتصادي (المحاصيل الزراعية ونظام الاقطاع والنشاط الصناعي ومراكز الصناعة التجارة الداخلية والخارجية) والاجتماعي والعلمي ومن ثم بناء قوة عسكرية ضاربة تصدت لأعظم القوى الغربية وأشرس هجماتها على الأمة الإسلامية

الدراسات السابقة

بالرغم من قلة الدراسات التي تناولت الجانب الاقتصادي في الدولة الأيوبية إلا أن المكتبة العربية لا تعدم من بعض المحاولات هنا وهناك ونذكر منها

- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير.
- ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة
- ابن عساكر، علي بن الحسن بن عبد الله الشافعي، تاريخ مدينة دمشق
- البيومي إسماعيل النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك
- أنس أحمد ذياب الأحمد، التاريخ الاقتصادي للعصر الأيوبي، رسالة دكتوراه جامعة اليرموك 2016
- محمد ياسين الحموي، دمشق في العصر الأيوبي

منهج البحث

سلكت في هذا البحث المنهج التاريخي الوصفي والذي وجدته الانسب في تبيان الأنشطة الاقتصادية من الناحية التجارية والصناعية والزراعية والموارد المالية ونفقات الدولة الأيوبية

الصعوبات التي واجهت الباحث أثناء الدراسة

لعل تناثر المعلومات الخاصة بموضوع البحث في بطون الكتب وندرتها شكلت عائقا أمام الباحث ومرد ذلك يكمن في أن أغلب المصادر تركز على الأحداث السياسية والعسكرية وتهمل باقي الجوانب

لا يخفى على أحد آثار الحملات الصليبية على بلاد الشام ومصر وتداعياتها من تغلغل للمجموعات العرقية الأوروبية إلى فلسطين قلب البلاد العربية وباقي الأماكن التي سيطر عليها الصليبيون في بلاد الشام وقد حملوا معهم الزي الأوروبية ورطانة اللغة الفرنجية ففي تلك الأيام السوداء إذا أردت التجول في شوارع بيت المقدسي على سبيل المثال لا تسمع إلا خليطا من الرطانة الأعجمية ك اللاتينية والفرنسية والألمانية والإيطالية مما يمكن تسميته زلزالا ديمقراطيا في بنية المجتمع العربي كان من أخطر نتائجه اقتلاع أهل لغة الضاد من موطنهم الأصلي إثر الهجمة الصليبية المسعورة على المدن وأخص هنا المدن الفلسطينية ومدن الساحل السوري ابتداء من سهول كليكيا ومرورا بالمدن الساحلية السورية ولعل أشنع مجازرهم والتي مارس فيها التطهير العرقي بحق العرب المسلمين كانت في بيت المقدس حين تهاوت دفاعات الحامية العبيدية التي قادها افتخار الدولة ف اقتحامها الصليبيون عنوة وهتكوا سترها وارتكبوا أشنع المجازر الإرهابية فذبحه الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز وكل من صادفهم في أزقتها وحاراتها ففزع المسلمون ولاذوا بالحرم الشريف إلا أن ذلك لم يشفع لهم حيث هجم الصليبيون عليهم وأعملوا السيوف في رقاب المسلمين فذبحه عشرات الآلاف وفقا للمصادر التاريخية الإسلامية واللاتينية ثم ما لبست أن تساقطت المدن الفلسطينية الساحلية والداخلية تباعا فاستولى الفرنجة على نابلس ف طبرية و ميناء يافا وحيفا وقيسارية وعكا (١)وبذلك انتهج الفرنجة سياسة تفريغ المدن من سكانها الأصليين ولكنهم بسياستهم الحمقاء هذه وقعوا في مشكلة أخرى عندما أراد من شارك في الحملة الصليبية العودة إلى بلاده فحاولوا تقديم الإغراءات له و سنوا قوانين لتشجيع رعاياهم الأوروبيين على استيطان بيت المقدس ك خفض الضرائب والإعفاء من الرسوم على البضائع وكل ذلك لم يجدي نفعا وبدأت الأسر العربية بشقيها الإسلامي والمسيحي بالعودة إلى المدن فعاد المستوطنون الأوروبيون أقلية في فلسطين وسائر الأماكن الأخرى التي سيطر عليها الفرنجة

---

1. وليم الصوري، الأعمال المنجزة في ما وراء البحار، تر. سهيل ذكار،(بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٠).٤٨١–٤٩٨.

ولعل كل السياسات الوحشية التي استخدمها الفرنجة في حملاتهم الصليبية ضد بلاد الشام ومصر وفلسطين لم تجدهم نفعا فلم ينجحوا بالتطهير العرقي ضد الوجود العربي لا سيما في القدس كما أخفقوا في جذب الاستيطان الأوروبي إلى البلاد والأماكن التي سيطروا عليها والأهم كل ذلك أنهم لم يستطيعوا الوقوف في وجه الدولة الأيوبية وتطورها وبناء قوتها الاقتصادية أولا ومن ثم القوة العسكرية التي كانت كفيلة ب دحرهم من بلاد الشام وأسر ملوكهم وزلزلة الأرض من تحت عروشهم فصلاح الدين بحنكته العسكرية وبعد نظره في قيادة الدولة أدرك تماما إن الدولة لن تقوم على قدميها ولن يستطيع دحر المعتدين الغزاة إلا إذا أتم بناء الدولة من الداخل ولا يمكن لهذا البناء أن يتم إلا من خلال تكاتف الجهود والنهوض بالمجتمع الإسلامي من الداخل وهذا ما نجح به صلاح الدين الأيوبي عندما استطاع توحيد الجبهة الإسلامية أولا في بلاد الشام ومصر ومن ثم الأخذ بأسباب القوة من خلال النهضة الشاملة في أركان المجتمع الإسلامي من حيث التجارة وأسواق التجارة والصناعات المختلفة وتطوير الصناعات الزراعية والمحاصيل الزراعية وضبط إيرادات الدولة فكانت نهضة اقتصادية عارمة ترافقت مع هذه النهضة نهضة تعليمية فتم تأسيس المدارس لكافة الاختصاصات حيث كانت بعض المدارس كالمعاهد والكليات وهي أعلى مستوى من المساجد والكتاتيب التي تعلم المبتدئين أصول القراءة والكتابة والعلوم الشرعية ولم يقتصر بناء المدارس على إدارة الدولة إنما شارك أيضا أشخاص من رجالها في بناء مدارس كالمدرسة الصاحبية في مدينة حلب التي أنشأها القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد سنة ٦٠١ ودرس ففيها(٢) والاهتمام بالصحة ومشاريع التنمية كل ذلك أدى إلى بناء مجتمع إسلامي قوي خلف جيشا قويا استطاع أن يهزم الفرنجة ويحرر بيت المقدس

استطاع صلاح الدين بحنكته أن يستعيد السيطرة على بعض الأماكن التي احتلها الفرنجة في بلاد الشام ومن ثم أتم الوحدة ما بين بلاد الشام ومصر وانضم إليها إقليم الحجاز وهذا ما أدى إلى زيادة المبادلات التجارية بين هذه الأقاليم وقد ساهمت عمليات شق الطرق للمواصلات إلى تسهيل التجارة وتسهيل نقل البضائع من منطقة إلى أخرى ومن أمثلة هذه الطرق طريق الرقة فمن خلاله كانت تحمل السلع والبضائع تجاريا الواردة من مصر والشام إلى بغداد ويبدأ الطريق الثاني ببغداد مارا بمدينة تكريت فالموصل ثم نصيبين، سنجار، داره ماردين، رأس العين، حران، بزاعة،حلب، قنسرين حماة، حمص، دمشق (٣)

2. محمد بن علي بن ابراهيم ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (دمشق منشورات وزارة الثقافة ١٩٩١)، ٢٥١.

المبحث الاول : النشاط التجاري في الدولة الأيوبية

المطلب الأول : الطرق التجارية وأهم المراكز في المدن الأيوبية

لقد كانت مصر مركزا مهما لتجارة العبور بين الشرق والغرب لذلك لعبة التجارة دورا رئيسا في الحياة الاقتصادية لمصر وذلك بفضل موقعها الجغرافي المتميز من خلال إشرافها على موانئ البحر الأحمر واتصالها بالبحر المتوسط (٤) وكانت القاهرة من المراكز التجارية المهمة وقد ازدهرت نتيجة توافد التجار الأجانب عليها بعد مساهمة الدولة في توفير احتياجات التجار من حماية وخدمات وأمن(٥) أضف إلى ذلك بأنها كانت نقطة انطلاق قافلة الحج المصري و محطة تجارية في طريق قافلة الحج المغربي وأصبحت القاهرة مركز تجمع السلع وتوزيعها (٦) حيث كانت تصدر العديد من المنتجات إلى الشام مثل حقائب الجلد ومصنوعات أخرى وأما على مستوى الصادرات الزراعية فقد كان قصب السكر من أهم المواد الغذائية التي كانت تصدر من مصر إلى الحجاز والشام حيث لعب الازدهار الزراعي في مصر دورا مهما في الوفرة الغذائية(٧)

3. احمد عبد العزيز محمود، إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي رجل عصره(أربيل مكتب التفسير للنشر والإعلام،٢٠١٠)،٢٦٠.
4. فوزي خالد علي الطواهية،الحياة الاقتصادية في مصر في العصر الأيوبي (عمان : الجامعة الأردنية،رسالة دكتوراه ٢٠٠٨)،١٣٥.
5. محمود، إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي، 260.
6. الطواهية،الحياة الاقتصادية، 157.
7. عدنان محمد فايز الحارثي، عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي (القاهرة : مكتبة زهراء الشرق، ١٩٩٩)،209.

ولعل مدينة دمشق اكتسبت دورا تجاريا هاما أيضا لا سيما بعد مجاورتها للدولة اللاتينية التي تأسست بعد الحرب الصليبية الأولى فترسخت العلاقات التجارية بين هذه الدولة ودمشق لا سيما في أيام الهدنة والسلم أضف إلى ذلك وقوع دمشق على طريق القوافل الآتية من الهند وفارس والعراق تحمل بضائع هذه الأقطار إلى الثغور الشامية التي غصت بتجار البندقية وجنوا وموانئ فرنسا (٨) وقد ساهمت الدولة الأيوبية في تنشيط الحركة التجارية في بلاد الشام من خلال توفير الأمن والحماية للتجار وأموالهم أضف إلى ذلك الازدهار الصناعي التي كانت تشتهر به أسواق دمشق وحلب

وإذا تابعنا الحديث عن الحركة التجارية في الدولة الأيوبية لابد أن نتطرق أيضا إلى منطقة الحجاز حيث كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف من أهم المراكز التجارية في العصر الأيوبي حيث شكلت مكة المكرمة محطة تجارية مهمة للقوافل القادمة إليها من اليمن قاصدة الشام أو العكس ومن العوامل الأخرى التي ساهمت بشكل كبير في الازدهار التجاري في مكة المكرمة هو حركة البيع والشراء في موسم الحج أضف إلى ذلك موقعها القريب من ميناء جدة على ساحل البحر الأحمر والقوافل التجارية القادمة من اليمن والشام (٩)

وأما اليمن فقد حرص الأيوبيين على تنشيط الحركة التجارية وزيادة التبادل التجاري بين المناطق اليمنية من خلال توفير الأمن في معظم مناطق اليمن وحماية طرق الحجاج والتجار واهتمت الدولة الأيوبية بشكل خاص بالموانئ اليمنية وخاصة ميناء عدن باعتباره من المصادر المهمة لموارد الدولة حيث تم تحصينه و إنشاء الأسواق والخانات فيه (١٠)

٨.محمد ياسين الحموي، دمشق في العصر الأيوبي (دمشق: مكتبة النشر العربي، 1946)، ٤١.

٩.عائشة عبد الله عمرباقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي(جدة: جامعة الملك عبدالعزيز، رسالة ماجستير،١٩٨٠)،٨١.

١٠.فاروق أحمد حيدر، المؤسسات التعليمية في عهد الدولة الأيوبية في اليمن(مجلة الدراسات الاجتماعية ٢٠٠٣/١٦)،١١.

المطلب الثاني : الأسواق في الدولة الأيوبية

لقد كان للأسـواق في الدولة الأيوبية دور هام في تنشـيط التجارة الداخلية والخارجية ومن أهم ما يميز هذه الأسـواق أنها كانت تتبنى بطريقة يسـهل العمل فيها في النهار وتسـهل حمايتها في الليل فجعلت أبوابها عريضـة مصـفح بالحديد كما جعل لها مناور تمدها بالشـمس والهواء ولعل أهم ميزة تميزت بها هذه الأسـواق أنها أخذت طابع التخصـص بحيث اختص كل سـوق بحرفة خاصـة(١١)فقد توسـعت أسـواق القاهرة وبرزت أسـواق جديدة كالسـلاح والأطعمة وتميزت هي أيضـا بالتخصـص فكانت هنالك أسـواق لتجهيز الإبل و لبيع الأوز والدجاج و لبيع الشـمع والأقمشـة والحصـير و لبيع الحلي والحلوى وسـوق الورق وغيرها (١٢) وإذا انتقلنا إلى أسـواق دمشـق فلن تختلف كثيرا عن تلك الأسواق التي كانت في القاهرة فهي أيضـا ابتسـمت في حالة التخصـص فكانت حافلة بكافة أنواع السـلع والبضـائع فنجد فيها سـوق الذهب وسـوق الصـاغة وسـوق النحاسـين و سـوق الوراقين وسـوق الخيل والنجارين وسـوق السـلاح وسـوق الفاكهة والقمح والغنم وقد وصـفها ابن جبير في رحلته فقال " من أحفل أسـواق البلاد وأحسـنها انتظاما وأبدعها وضـعا ولها أيضـا سـوق يعرف بالسـوق الكبير يتصـل من باب الجابية إلى باب شرقي"(١٣)ولعل من أجمل أسواق الدولة الأيوبية أسواق مدينة حلب الشهباء كيف لا وحلب تتمتع بالموقع الجغرافي الذي يجعلها لؤلؤة المناطق الشـمالية والمركز الرئيس للأسـواق التجارية في المنطقة وقد تخصـصـت أسـواقها في كل ما يحتاجه الإنسـان من أثاث ولباس وأدوات الزراعة والصـناعة وكانت هي أيضـا تتمتع بالتخصـص مثل سـوق البز للقماش وسـوق الخشـابين وسـوق الخيل والسـلاح و الصـياغ وسـوق العطر وسـوق العطارين وقد ذكر ابن جبير أسـواق حلب في رحلته أيضـا فقال " أسـواقها متصـلة الانتظام مستطيلة تخرج من ص ماط صـنعة إلى سماط صـنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب ف سكانها في ظلال وارفة (١٤)

١١. عبد الرحمن بن نصر الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،١٩٤٦)،١١.

١٢.الحارثي،عمران القاهرة وخططها،٣٢٧.

١٣.ابو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير (بيروت: دار صادر)،٢٦١.

١٤. ابن جبير، رحلة ابن جبير،٢٢٦_٢٢٧.

المطلب الثالث : التجارة الخارجية

لقد أبدت الدولة الأيوبية لاسيما في عهد صلاح الدين الأيوبي اهتماما خاصا بالتجارة الخارجية وكان لا سبيلا لتنشيط التجارة الخارجية إلا في إقامة العلاقات مع الدول والمدن الأوروبية ولعل من أهم هذه المدن المدن الإيطالية جنوة والبندقية و بيزة (١٥) وتمكن تجار هذه الأخيرة من الحصول على معاهدة تجارية في الإسكندرية تكفل لهم امتلاك كنيسة وفندق وحمام وتمتعهم بحرية العبادة و إعفاء واردات الذهب والفضة من الضرائب كما تم تشجيعه استيراد المنتجات الغربية إلى مصر كالحديد والخشب وكانت سفن البندقية في القرن الثاني عشر تقوم بالرحلات التجارية إلى مصر تحمل إليها الدقيق والحديد والخشب وأدوات القتال وتنقل منها التوابل الهندية والحرير الصيني والسلع المصرية(١٦) وساهم صلح الرملة بين المسلمين والصليبيين عام ١١٩٢ على زيادة التبادل التجاري بين الطرفين أضف إلى ذلك علاقات مصر القوية مع الهند والحبشة مما عزز دورها التجاري مع هذين البلدين(١٧)ولا يخفى على أحد الدور التجاري هام التي كانت تلعبه مدينة حلب بسبب تمتعها بموقعها الجغرافي الهام جدا والذي كان يربطها بطريق الحرير من أقصى الشرق إلى أوروبا وأيضا طريق الحجاز فكانت تعتبر بحق صلة الوصل بين قارات العالم الثلاث فكانت من أهم مناطق تبادل السلع التجارية

١٥.الحارثي،عمران القاهرة وخططها، ٢٢٠

١٦. عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (دمشق : دار دمشق للطباعة والنشر،١٩٨٠)،١٩٠.

١٧. الحارثي،عمران القاهرة وخططها، ٢٢٠

المبحث الثاني النشاط الزراعي والصناعي في الدولة الأيوبية

المطلب الاول: المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية ونظم الري

لعل ويلات المجاعات الناتجة عن الحروب دفعت الأمراء الأيوبيين للاهتمام بالزراعة و وسائل الري الحديثة مما ساعد على ازدهار و تطور النشاط الزراعي(١٨) فقد اهتم صلاح الدين الأيوبي بأنظمة الري من خلال عمارة القناطر والجسور وكان الري يعتمد على نهر النيل حيث كانت تقسم الأراضي إلى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور أما في بلاد الشام والحجاز فقد اعتمدت الزراعة فيها بالدرجة الأولى على مياه الأمطار والأنهار والعيون ولعل أهم المحاصيل الزراعية القمح والشعير والعدس والحمص والفول والسمسم والقطن وقصب السكر والخضروات والفواكه كالتين والتفاح والبطيخ والخوخ والمشمش وهذا ما يخص مصر أما في بلاد الشام فكانت هنالك محاصيل مشتركة كالشعير والأرز والسمسم واللوبياء والخضروات والباذنجان واللفت والجزر والكثير من أنواع الفاكهة أما في الحجاز فكان أهم حاصلاتها الشعير والذرة والخضروات ومثلها اليمن أيضا نذكر منها السمسم والفواكه كالعنب والرمان والسفرجل والتفاح والخوخ (١٩)

وقد لعبت الثروة الحيوانية دورا فاعلا في الاقتصاد ودورة الحياة الاقتصادية فكان لها الدور الأهم في الغذاء ومن أهم الثروات الحيوانية في الدولة الأيوبية نجد الماعز والأغنام والأبقار والجمال ومنها ما كان يستخدم للنقل مثل الخيول والجمال والحمير والبغال وقد بذلت الدولة الأيوبية جهودا حثيثة في حماية هذه الحيوانات من الناحية الصحية وحمايتها من الأمراض الفتاكة حيث تم تخصيص بيمارستان خاص بها عريف ب بيمارستان (الإسطبل)حيث تم تجهيزه بالأطباء البيطريين المهرة وكافة اللوازم الطبية لغرض معالجة الحيوانات السقيمة(٢٠)

١٨. محمد صديق حسن، "سياسة الأيوبيين الزراعية في بلاد الشام"، آداب الرافدين ٤٨ (٢٠٠٧)،٩.

١٩. أبي العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة : دار الكتب المصرية،١٩٢٢)،٤/٨٦_٨٧.

٢٠. محمود، إجحاف بحق المجاهد صلاح الدين الأيوبي،٢٧٨.

المطلب الثاني: الصناعة (أنواعها _ صناعها _ أماكنها)

ما كان يميز الدولة الأيوبية من حيث الصناعة تعدد أنواع الصناعات المختلفة والتي كانت تغطي حاجة الدولة سواء الحاجات المدنية أو العسكرية ففي مصر ازدهرت الصناعات النسيجية وصناعة الحصر والحبال والصناعات الجلدية والغذائية والزيوت والصابون والصناعات المعدنية كالذهب والفضة والنحاس وصناعة السفن وهذه الأخيرة كانت من أهم الصناعات لأنها كانت ترفد الأسطول المصري بالسفن اللازمة في المعارك ضد الصليبيين أما في بلاد الشام فقد اشتهرت بالصناعات النسيجية كالحرير والقطن والسجاد أضف إلى ذلك صناعة الورق والزجاج وصناعة الجلود وتربية دودة الحرير والنجارة والصناعات المعدنية كالذهب والفضة والحديد والفولاذ والنحاس أضف إلى ذلك الأدوات الحربية (٢١) والخزف والفخار والرخام وإذا عرجنا إلى اليمن فقد تم إدخال صناعات جديدة إليها في العصر الأيوبي مثل الزجاج والأجر وقد اشتهرت اليمن بالصناعات الجلدية كالأحذية والأحزمة أما في بلاد الحجاز فكانت هنالك صناعات الأدوات الزراعية كالفؤوس والمناجل وصناعة الحصير

أما الصناع فقد تميزوا بأنهم كانوا ينظمون أنفسهم في نقابات وكان لهذه النقابات نظم وتقاليد يحترمها الجميع وتشرف من خلالها على أعمال الصناع وكان طوائف الصناع توزع على الشكل التالي

شيخ الكار: يعتبر الشيخ حاكم الحرفة ورئيس الطائفة ويتم انتخابهم قبل معلمين من رجال الحرفة ثم يأتي بعد الشيخ المعلم ثم الصانع ثم المبتدئ ويشكل الصناع العدد الأكبر في كل المهن والكارات وأما المبتدئ والأجير يعمل لعدة سنين بدون أجرة ويكتفي بتعلم الصنعة من أستاذه ومنهم من يرتب له جمعية وهي أجرة تدفع كل أسبوع حسب مهارة الأجير(٢٢)

٢١. باقاسى، بلاد الحجاز، ١٠٤_١٠٥

٢٢. عبد العزيز صلاح سالم، الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي (القاهرة: مركز الكتاب للنشر،١٩٩٩)،٥٤.

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن الصناعة في العصر الأيوبي أن نخوض ونتحدث عن أهم المراكز الصناعية في مصر وبلاد الشام في العصر الأيوبي ففي مصر مثلا نجد القاهرة التي كانت من أهم المراكز العمرانية المهمة وازدهرت فيها الأسواق والصناعات الحرفية حيث اشتهرت القاهرة بصناعة المنسوجات والسجاد والصباغة وإنتاج الأخشاب ورجت فيها صناعة التحف المعدنية وفيها سوق الخراطين يحتوي على حوانيت الخراطين وحوانيت صناع السكاكين واشتهرت القاهرة أيضا بصناعة الفخار والورق و فن تجليد الكتب حيث استخدم الصناع جلود العجول كما استخدموا الحرير والديباج والأطلسي في تجليد المصاحف واشتهرت أيضا بصناعة الأقمشة والملابس وأدوات الزينة والصناعات الخشبية (٢٣)

ومن المراكز الهامة أيضا الصناعة في مصر كانت مدينة الفسطاط التي أعاد بنائها أسد الدين شيركوه بعد أن دمرها الفاطمي شاور واشتهرت بالصناعات المعدنية كالحديد وتواجد فيها مسابك النحاس ومسابك الفولاذ واشتهرت بتصنيع قطع النحاس ك الأباريق والمباخر والثريات والأواني المنزلية واشتهرت بكثرة الطواحين وصناعة الزجاج والصابون واشتهرت بالصناعات الحربية أيضا وكانت مركزا للخزف و حرفة الصباغة (٢٤)

وهنالك مدينة دمياط أيضا التي تعتبر من المراكز المهمة لصناعة من زوجات في العصر الأيوبي فاشتهر سكانها بصناعة لألبس الملونة و المصنوعة من الكتان وصناعة القماش الشفاف من الخيوط الحريرية والمذهبة أضيف إلى ذلك مدينة تنيس التي اشتهرت وانفردت بصناعتها النسيجية وكان يصنع بها كسوة الكعبة وبرع أهلها في طبع وختم الزخارف على المنسوجات (٢٥)

٢٣. الحارثي، عمران القاهرة وخططها،٢٣٦_٢٣٩.

٢٤. سالم، الفنون الإسلامية،١٤٢_١٤٤.

٢٥. سالم، الفنون الإسلامية،١٤٥.

أما في بلاد الشام نجد دمشق حاضرة بمهارتها وصناعها وبنائيها وقد اشتهرت بصناعة السلاح والمصوغ وكان اسم دامسكو في أوروبا يمثل رمز الإتقان والجودة الدمشقية حيث اشتهرت دمشق بالمنسوجات الحريرية والصوفية والقطنية ووصف العالم أبي البقاء بن محمد البدري (٢٦) صناعة دمشق وقال:" ومن محاسن الشام ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه و ضروبه ورسومه وفيها تعمل صناعة الذهب المسكوك وصناعة القرطاس بحسن ثقاله ونقي أوصاله وفيها صناعة الحرير وفيها تعمل صناعة السلاح وصناعة النحاس"

ولكون مدينة حلب من المراكز التجارية المهمة كما ذكرنا وأن على طرق قوافل التجارة العالمية ويأتيها التجار من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق اشتهرت حلب بعدة صناعات منها صناعة الصابون حيث كانت حلب تنتج أفخر أنواع الصابون وتبيعه إلى ممالك الرومي والعراق وديار بكر وكان يباع في حلب في اليوم الواحد من الصابون ما لا يباع في غيرها في أشهر واشتهرت أيضا بصناعة المنسوجات والعطور والأحذية والجلود وتميزت بماء الورد الذي كان الأطباء يصفونه للمرضى كدواء واشتهرت أيضا بصناعة المناديل الحريرية (٢٧)

٢٦. أبي البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام (بغداد : المكتبة العربية،١٣٤١هـ)،٣٦٢_٣٦٣.

٢٧. أبي الفضل محمد بن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب (سورية : دار الكتاب العربي، ١٩٨٤)،٢٥٤.

المبحث الثالث الإدارة المالية في الدولة الأيوبية

المطلب الأول_ موارد الدولة الأيوبية :

- الضرائب التجارية وقد فرضها صلاح الدين على الصادرات والواردات من البضائع على التجار الأجانب حيث ألزم التجار بدفع ضرائب على البضائع المستوردة وخاصة القادمة من الموانئ البحرية الأوروبية إلى الإسكندرية وقد سميت هذه الضرائب بالخمس أو الخمس الرومي(٢٨)
- الذكاة والتي كانت تعتبر من أهم موارد الدولة الأيوبية وقد نجح صلاح الدين الأيوبي في سنوات حكمه في إلغاء كافة الضرائب والمكوس التي فرضها الفاطميون والتي كانت منافية لأحكام الشريعة الإسلامية حيث كتب القاضي الفاضل عن صلاح الدين مرسوما بإسقاط مكوس مصر والقاهرة وكان صلاح الدين يسارع إلى رفع الضريبة في المدن والأقاليم التي يضمها إلى دولته وعندما استولى على دمشق كان أول عمل اتخذه هو إبطال الضرائب وكذلك الأمر في حلب وآخر المطاف أعاد فريضة الزكاة وجعلها البديل عن الضرائب غير الشرعية وأقام لها ديوان تسلمه (متولى الزكاة) وكانت الزكاة تفرض على الذهب والفضة وعروض التجار والمزروعات مع إعفاء المواد الغذائية كالسمسم والزيتون والخضار(٢٩)
- ضريبة الخراج ويرتبط الخراج بالإقطاع الحربي ويعتبر من الإيرادات الهامة لبيت المال حيث كان المزارع يدفع ضريبة سنوية على الأرض التي يفلحها ليقوم المقتطع باستقطاع النسبة المطلوبة منه دفعها لخزانة الدولة وارتبط الخراج بالغابات والمعادن فمن أراد أن يستفيد من أملاك الدولة كالغابات عليه أن يدفع رسوم مقابل انتفاعه بأخشابها وكانت الأخشاب والمعادن من اللوازم الضرورية لصناعة الأسلحة والسفن ولذلك تم احتكارها من قبل الدولة (٣٠)

٢٨. أنس أحمد ذياب الأحمد، التاريخ الاقتصادي للعصر الايوبي (إربد: جامعة اليرموك،رسالة دكتوراه، ٢٠١٦)،٢٠٥.

٢٩. شاكر مصطفى،صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه(دمشق : دار القلم، ٢٠٠٣)،٣٨٨.

٣٠. مصطفى، صلاح الدين الفارس،٣٨٩.

- وكانت هنالك ضرائب أخرى غزت خزانة الدولة ومنها ضريبة الجوالي وي ضريبه يتم فرض على أهل الذمة أي اليهود والنصارى الأحرار البالغين دون النساء والصبيان والرهبان والعبيد والمجانين ومنها أيضا أموال المواريث الحشرية وهما الذين يموتون دون وريث حيث يرثهم بيت المال وأيضا رسوم التي تجبى من أصحاب الأموال الذين يرغبون في سك ما لديهم من ذهب أو فضة في صورة عملة رسمية أضف إلى ذلك من الموارد ما كسبه الأيوبيون من كنوز الدولة الفاطمية بعد أن سيطر صلاح الدين على مصر وموارد الفدية التي يتم تحصيلها من الأسرى والغنائم التي يتم اكتسابها أثناء الحروب

المطلب الثاني: إنفاق الدولة

لقد تنوعت أوجه الإنفاق في الدولة الأيوبية فنجد أن الإنفاق بدأ في المؤسسات التعليمية لا سيما المدارس والمساجد حيث اهتم أمراء بني أيوب وعلى رأسهم صلاح الدين بإنشاء المدارس ودور العلم وزاد عددها بشكل كبير وتم الاهتمام بطلبة العلم من خلال توفير كامل احتياجاتهم من النفقة والطعام والكسوة والإقامة وكان بكل مدرسة وقف خاص بها وكانت المدارس تحوي على مسجد ومسكن المدرس ومكتبة عامرة بالكتب النفيسة وقد ذكر ابن جبير عن القاهرة ما يلي:" ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام وتجري عليهم الجراية الكافية لهما"(٣١)ا

٣١. ابن جبير، رحلة ابن جبير، ٢٧.

ومن أوجه الإنفاق أيضا البيمارستانات والبيمارستان كلمة فارسية مركبة من كلمتين(بيمار) بمعنى مريض (ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذا دار المرضى وقد اهتم الأيوبيون بالطب وأنفقوا على بناء المستشفيات لمعالجة المرضى وتدريس الطب وفي عام ألف و مئة واتنين وثمانين أنشأ صلاح الدين بيمارستان في أحد أجزاء القصر الفاطمي في القاهرة وأوقف عليه الأوقاف في تغطية مصاريفه وقد وصف ابن جبير البيمارستان الناصري في القاهرة وقال:" ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا أبرزه لهذه الفضيلة أجرا واحتسابا وعين قيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى وبين يدي ذلك القيم خدما يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم و بإيذاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ولهن أيضا من يكفلهن ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابك الحديد اتخذت محابس للمجانين ولهم أيضا من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد"(٣٢)وكانت تشكل هذه البيمارستانات الكليات لتدريس الطب فكان يعقد فيها الاجتماعات العلمية ويتبادل الأطباء الخبرات ومثال على ذلك ما ذكره الطبيب والمؤرخ ابن أبي أصيبع ع عن الدروس والحلقات العلمية والمباحث الطبية التي كان يعقدها الطبيب أبو المجد بين الحكم في البيمارستان النور في دمشق حيث كان بعد أن ينتهي من معاينتي ومداواة المرضى يأتي ويجلس في الإيوان الكبير في البيمارستان ويحضر إليه من يعمل في البيمارستان من أطباء ثم تجري مباحث طبية وتستمر هذه الحلقة مدة ثلاث ساعات (٣٣)

٣٢. ابن جبير، رحلة ابن جبير، ٢٦.

٣٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، (بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة)، ٦٢٨.

ومن أوجه الإنفاق أيضا ما كان يصرف على الجيش والتحصينات والأسطول حيث اهتم صلاح الدين كثيرا بالإنفاق العسكري و بإعداد جيش قوي لا سيما بعد اشتداد الحروب الصليبية واعتمد على نظام الإقطاع الحربي لتغطية نفقات الجيش كما ذكرنا سابقا ووصلت أعداد الجيش الأيوبي في مصر إلى 8640 فارس وبلغت نفقاتهم الكثير من الدنانير واهتم صلاح الدين أيضا ببناء التحصينات حيث أمر بإعادة بناء سور القاهرة وبناء قلعة داخل السور بهدف تحصين القاهرة أمام الحملات الصليبية (٣٤) كما اهتم صلاح الدين في تسوير المدن الأخرى مثل مدينة دمياط وأمر ببناء قلعة وسور في مدينة تنيس وقد تولى ديوان الجيش المسؤولية عن الشؤون الخاصة بالجيش كإصدار الإحصاءات بعدد الجيوش والنفقات المخصصة لها وتولى أيضا الإنفاق على العمائر والتحصينات أما بالنسبة للأسطول فقد كان الأسطول ضعيفا في بداية الحكم الأيوبي لكن صلاح الدين أخذ على عاتقه عهدا بالإشراف والإنفاق على ذلك الأسطول حتى يتحول إلى أسطول قويا يستطيع صد الغزوات والهجمات الصليبية وقد أنفق الأيوبيون أيضا على وسائل التواصل والبريد واستخدموا الحمام الزاجل لهذا الغرض واعتنوا به عناية شديدة وأنفقوا عليه الكثير من الأموال وبنوا له الأبراج في العديد من الثغور والمناطق (٣٥) ولعل هذا الإنفاق إن دل على شيء فإنه يدل على الغرض الرئيس من هذا البحث وهو أن شخصية صلاح الدين لم تكن شخصية عسكرية فقط بل كانت شخصية إدارية وتمتع ببعد نظر هائل عندما أدرك أن لا سبيل إلى الانتصار على الصليبيين إلا من خلال تأسيس دولة قوية من جميع النواحي العلمية والأدبية والثقافية والاقتصادية وهذا ما تم بالفعل وكان نصر معركة حطين العظيم والذي لم يكن لولا براعة صلاح الدين وحسن إدارته للدولة من كافة الجوانب والنواحي

٣٤.محمد رجب البيومي، صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي (دمشق : دار القلم،١٩٩٨)،١١٨.

٣٥. تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بيروت : دار صادر)، ٢/٩٤.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة المستفيضة للجانب الاقتصادي بالدولة الأيوبية ولما قام به صلاح الدين الأيوبي قائد هذه الدولة وجدنا النقاط التالية

- إن العهد الأيوبي تتمتع باقتصاد مزدهر من كافة النواحي التجارية والصناعية والزراعية وهذا كان نتيجة اهتمام صلاح الدين بأعمال التجارة الداخلية والخارجية وما وفره للتجار من حماية لأموالهم وأملاكهم وما وفر للتجارة من طرق مواصلات آمنة وكل الخدمات اللازمة لتسهيل حركة التجار وضبط ومراقبتها ومنع كل عمليات الغش والتدليس واهتمامه أيضا بالتجارة الخارجية وعقد المعاهدات التجارية مع أهم المدن الأوروبية كل هذا أدى إلى الزيادة في الأسواق وفاضت بمختلف السلع والبضائع
- ولم يخف على أمراء الأيوبيين أهمية الزراعة فقام صلاح الدين بالاهتمام المباشر بالزراعة من خلال الاعتناء بوسائل الري والأقنية وبناء القناطر والجسور وتنويع الحاصلات الزراعية أدى كل ذلك إلى وفرة المحاصيل وتنوعها أضيف إلى ذلك ما أولاه الأمراء الأيوبيون من اهتمام بالثروة الحيوانية وحماية الفلاح من الظلم من خلال القيود التي تم وضعها على الإقطاعيين حيث كان على المقتطع أن يقدم خدمات مالية تحقق العدل والنزاهة وحماية الإقطاع وإدارته بكفاءة
- هو في مجال الصناعة هذا المجال الهام أيضا فقد تميز العصر الأيوبي بالازدهار الصناعي حيث تنوعت الصناعات وكانت مدن كالقاهرة والفسطاط ودمشق والإسكندرية وحلب من أهم المراكز الصناعية الهامة في زمن الأيوبيين حيث تعددت الصناعات وأصبحت الصناعات سيما الشامية منها المطلب الرئيس في الدول الأوروبية لما اكتسبته من شهرة

واسعة من حيث حسن التصنيع والجودة والإتقان أضف إلى ذلك الصناعات الحربية التي ساهمت في عملية النصر على الحشد الصليبي في فلسطين وتحرير بيت المقدس

- وفي مجال الإدارة المالية فقد نجح الأيوبيون في إدارة موارد الدولة فاستطاعوا الحصول على عدة موارد لخزينة الدولة كما أنهم أنفقوا هذه الأموال بما يخدم المجتمع من تعليم وصحة وطبابة وجسور وطرق إلى آخره
- وصفوة القول مما ذكرناه أن القائد صلاح الدين الأيوبي كان قائد دولة وقتع بحسن تسير الأمور وحنكة قيادية فذة وبعد نظر فكان يأخذ بكل أسباب القوة من توحيد البلاد الإسلامية التي شردمتها الفتن الداخلية والغزوات الصليبية وقد نجح في ذلك بعد أن وحد بلاد الشام ومصر والحجاز ووصل إلى اليمن ومن ثم بدأ يعد العدة بإنشاء جيش قوي او أسطول قوي وكان الهدف بيت المقدس وكان له الفتح العظيم في معركة حطين الخالدة

المصادر والمراجع

ابن شداد محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة دمشق منشورات وزارة الثقافة 1991.

محمود أحمد عبد العزيز، إجحاف بحق مجاهد صلاح الدين الأيوبي رجل عصره أربيل مكتب التفسير للنشر والإعلام.2010

الطاهي فوزي خالد علي، الحياة الاقتصادية في مصر في العصر الأيوبي رومان رسالة دكتوراه 2008.

الحارسي عدنان محمد فايز،عمران القاهرة وخطتها في أحد صلاح الدين الأيوبي القاهرة مكتبة زهراء الشرق 1999.

الحموي محمد ياسين، دمشق في العصر الأيوبي مكتبة النشر العربي 1946.

با قاسي عائشة عبد الله عمر،بلاد الحجاز في العصر الأيوبي جامعة الملك عبد العزيز رسالة ماجستير 1980.

حيدر فاروق أحمد، المؤسسات التعليمية في عهد الدولة الأيوبية في اليمن مجلة الدراسات الاجتماعية 2003.

الشيزري عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة القاهرة 1946.

بن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة أبن جبير

زيتون عادل،العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى دمشق 1980.

حسن محمد صديق سياسة الأيوبيين الزراعية في بلاد الشام.

القلقشندي أبي العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا القاهرة. 1922

سالم عبد العزيز صلاح،الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي القاهرة 1999.

أبي البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام بغداد 1341 هجري.

أبو الفضل محمد بن الشحنة، الضرر المنتخب في تاريخ مملكة حلب سوريا 1984.

الأحمد أنس أحمد ذياب،التاريخ الاقتصادي للعصر الأيوبي الأردن 2016.

مصطفى شاكر صلاح الدين، الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه دمشق 2003.

إبن أبي أصيبعة،عيون الأنباء في طبقات الأطباء بيروت مكتبة الحياة

البيومي محمد رجب، صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي دمشق 1998.

المقريزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

الصوري ويليم، الأعمال المنجزة في ما وراء البحار ترجمة سهيل ذكار بيروت 1990